المقياس العلمي للمفسر

القسم الثاني

بقلم

أ.د/ السيد رزق إبراهيم البيومي

أستاذ

بقسم التفسير بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد بينت فى العدد السابق (العدد السادس) لهذه الحولية المباركة إن شاء الله تعالى : أن الإنسان لا يكون مفسرا إلا إذ اجتاز مرحلتين بنجاح على وجه الامتياز : مرحلة الإعداد والتوجيه ، ومرحله البذل والعطاء ، وذكرت : أن عناية المسلمين بالعلوم المختلفة فى تاريخهم الطويل إنما كان الدافع لها هو خدمة القرآن الكريم وضمنت المقدمة هذه الدراسة ، وفصلت القول عن مرحلة الإعداد والتوجيه فى القسم الأول من البحث[1] وفى هذا العدد السابع من الحولية أكمل بقية بحثى بعون الله وتوفيقه فأتكلم إن شاء الله تعالى عن مرحلة البذل والعطاء بالتفصيل فى القسم الثانى من البحث وفى الخاتمة ذكرت موجزا للبحث وأهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة ، فأقول وبالله تعالى التوفيق .

---

(١) العدد السادس من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ص ١٢٥ - ١٧٥

القسم الثانى

(الكلام على (مرحلة البذل والعطاء) بالتفصيل)

(المقصود بمرحلة البذل والعطاء)

هى عبارة عن المرحلة التى يتجلى فيها البذل والعطاء العلمى للمفسر كنتيجه للمرحلة السابقة : (مرحلة الإعداد والتوجيه) فالبذل والعطاء العلمى عبارة عن الإنتاج العلمى فى التفسير الذى يقدمه المفسر ، ويعتبر من الثمار والنتائج للمرحلة المتقدمة التى أعد فيها فى المجالات التى تحدثت عنها .

الطرق والأساليب التى يتجلى فيها الإنتاج العلمى للمفسر

الإنتاج العلمى للمفسر فى المرحلة الثانية يأخذ أشكالا وصورا متعددة منها ما يأتى :

١ - قد يكون هذا الإنتاج العلمى فى التفسير عبارة عن إلقاء دروس ومحاضرات ، فى المؤسسات العلمية ، وفى المساجد ، وفى غير ذلك .

٢ - وقد يكون هذا الإنتاج عبارة عن كتابة أبحاث علمية فى التفسير تنشر فى الجرائد والمجلات على المستوى المحلى .

٣ - وقد يكون عبارة عن مقالات فى التفسير تنشر فى الجرائد والمجلات ، أو تذاع فى وسائل الأعلام الأخرى المرئية والمسموعة على المستوى المحلى أيضا .

٤ - وقد يكون فى صورة أبحاث أو مقالات تترجم باللغات الأجنبية وتنشر فى الخارج للرد على ما يثيره أعداء الإسلام من شبه وتشكيكات حول الإسلام والكتاب والسنة .

٥ — وقد يكون هـذا الإنتاج العلمى عبارة عن الإشراف على الرسائل العلمية فى التفسير وعلوم القرآن الكريم .

٦ — وقد يكون هذا الإنتاج عبارة عن تأليف الكتب فى تفسير القرآن الكريم وعلومه .

٧ — وقد يكون هذا الانتاج عبارة عن مناقشة الرسائل العلمية فى تفسير القرآن الكريم وعلومه .

٨ — وقد يكون هـذا الانتاج العلمى عبارة عن فحص الانتاج العلمى وكتابة التقارير العلمية التى تفيد صلاحية هـذا الانتاج أو عدم صلاحيته .

٩ — وقد يكون هذا الانتاج عبارة عن نشر العلم عن طريق البعثات العلمية إلى الدول الاسلامية الشقيقة أو غيرها .

١٠ — وقد يكون هذا الإنتاج فى صورة إجابات علمية فى تفسير القرآن الكريم وعلومه على أسئلة توجه إلى المفسر بالطرق الرسمية وغير الرسمية

فليس الإنتاج العلمى مقصوراً على تأليف الكتب والأبحاث فقط ، ولكن كما تبين لنا مما سبق قد يأخذ هـذا الانتاج العلمى أشكالا وصورا متعددة .

القواعد والضوابط التى يجب الالتزام بها وتطبيقها

يجب على المفسر تطبيق القواعد والصوابط الآتية فى إنتاجه العلمى التفسيرى :

١ — مراعاة مقضيات الأحوال :

فإذا كان الانتاج العلمى فى صورة دروس أو محاضرات ، فإنه يجب على المفسر مراعاة أحوال المستمعين ، وإذا كان فى صورة أبحاث أو مقالات أو كتب فإنه يجب عليه ملاحظة أحوال القراء .

٢ — أن يكون رائده فى الدعوة إلى الله تعالى قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين)[1] .

٣ — مراعاة قواعد مناهج التفسير ، التى تحدثت عنها فى بحثى السابق[2] .

فمثلا : إذا كان يفسر بمنهج معين فإنه يلتزم بقواعد هـذا المنهج وضوابطه ، فإذا كان يفسر تفسيرا إجماليا فإنه يلتزم بقواعد التفسير الاجمالى ، وإذا كان يفسر تفسيراً تحليلياً فإنه يلتزم بقواعده ، وإذا كان يفسر تفسيراً علمياً فإنه يلتزم بضوابطه ويراعى شروطه ، وإذا كان يفسر بالمنهاج الموضوعى فإنه يراعى ضوابطه وشروطه وهكذا .

وأضرب لذلك مثالا تطبيقياً عملياً : إذا كان المفسر يفسر نصاً قرآنياً تفسيراً تحليلياً فإنه يجب عليه مراعاة ما يأتى :

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل

(٢) (مناهج التفسير بين القديم والحديث) بحث منشور لى فى حولية كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر بالقاهرة — العدد الخامس — ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨ م .

(أ) مراعاة التناسب بين السور وبين الآيات، فيبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق، حتى يوضح أن القرآن الكريم لا تفكك فيه، وإنما هو سور وآيات متناسبة، يأخذ بعضها بحجز بعض.

(ب) ملاحظة أسباب النزول، فكل آية أو سورة نزلت على سبب فلابد من ذكره.

وهنا نتساءل: أيهما أولى بالبداءة؟ أيبدأ بالمناسبة أم بسبب النزول؟ يجيبنا على هـذا التساؤل الامام الزركشي فيقول: «وقد جرت عادة المفسرين أن يبدأ وابذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه: أيهما أولى بالبداءة؟ أيبدأ بذكر السبب أو بالمناسبة، ثم قال بعد كلام: «والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول كآية: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»[1] فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة»[2] اهـ.

(ج) بعد الفراغ من ذكر المناسبة، وسبب النزول، يبدأ المفسر بما يتعلق بالألفاظ المفردة، من اللغـة، والصرف مبينا في ذلك الأبنية والاشتقاق ثم يتكلم على النص القرآني من حيث التركيب، فيبدأ بالاعراب، ثم بما يتعلق بعلم المعاني، ثم ما يتعلق بعلم البيان، ثم ما يتعلق بعلم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم يبين أسرار الإعجاز في النص القرآني، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه في حدود القوانين الشرعية. ثم يربط النص القرآني بالقضايا المعاصرة وما يجري في المجتمعات الإنسانية، وكيفية علاج ما فيها من انحرافات عن طريق التفسير.

---

(١) انظر الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي.

٤ — لابد أن يراعي المفسر مطابقة التفسير للقرآن المفسر، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، ومن غير زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التفسير زيغاً عن المعنى وعدولا عن المراد.

٥ — مراعاة المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي، فإذا كان المراد المجازي فحمله على الحقيقة فإنه يقع في الخطأ، وكذلك إذا كان المراد المعنى الحقيقي فحمله على المجازي، فإنه تقع في الخطأ.

٦ — يجب على المفسر مراعاة التأليف والغرض الذي سبق له الكلام والمؤاخاة بين المفردات.

٧ — يجب على المفسر أن يطلب المعنى أولا من كتاب الله تعالى، فإن لم يجده طلبه من السنة بشرط أن تكون الأحاديث مقبولة، لأن السنة شارحة للقرآن الكريم وموضحة له، فإن أعجزه ذلك رجع إلى أقوال الصحابة، لأنهم أدرى بكتاب الله تعالى وأعلم بمعانيه، لما اختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولاحتمال أن يكونوا سمعوه من الرسول ﷺ، فإن عجز عن هذا كله، ولم يظفر بشيء من تلك المراجع الأولى للتفسير فهل يرجع إلى أقوال التابعين أم يجتهد؟ خلاف بين العلماء[1].

والرأي الراجح في نظري: أنه يجب الأخذ بقول التابعي في التفسير في حالتين:

الأولى: إذا كان تفسيره لا مجال للرأي فيه بشرط عدم الريبة

---

(١) كتبت في هذا الموضوع في كتابي: (دراسات في علوم القرآن الكريم).

أما إذا ارتبنا فيه : بأن كان يأخذ عن أهل الكتاب ، فلنا أن نترك قوله فى التفسير ولا نعتمد عليه .

الحالة الثانية : إذا أجمع التابعون على رأى فى التفسير .

أما إذا اختلفوا : فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم[1] :

وبناء على ماتقدم يمكن إدراج التفسير المنقول عن التابعين فى التفسير بالمأثور ، بالشروط التى ذكرتها ، لأن كتب التفسير بالمأثور مثل كتاب (جامع البيان فى تفسير القرآن) للإمام الطبرى ، لم تقتصر على ماروى عن النبى ﷺ ولا ماروى عن الصحابه ، بل ضمت إلى ذلك مانقل عن التابعين فى التفسير .

من هذا المنطلق تقرر : ان المفسر إذا لم يظفر بالتفسير فى أقوال الصحابة فإنه يرجع إلى أقوال التابعين فى التفسير بالشروط المتقدمة

فإذا لم يجد التفسير فى أى مصدر من المصادر الأربعة المتقدمة : (القرآن — أحاديث الرسول ﷺ المقبولة — أقوال الصحابة — أقوال التابعين) فليس على المفسر إلا أن يعمل عقله ، ويقدح فكره ، ويجتهد وسعه فى الكشف عن مراد الله تعالى .

٨ — يجب على المفسر أن يطبق قانون الترجيح فى الرأى إذا كان النص القرآنى يحتمل أكثر من وجه فى التفسير ، وبالمثال يتضح المقال :

(ا) فمثلا : يجب على المفسر أن يحمل ألفاظ القرآن الكريم على

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية

حقيقتها وعلى المعنى الظاهر منها إلا إذا كان هناك دليل يمنع من إرادة المعنى الظاهر الحقيقى فعلى المفسر فى هذه الحالة أن يعدل عن ظاهر اللفظ إلى المعنى الآخر .

فقول الله تعالى : (ولتصنع على عينى)(١) وقوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم)(٢) لا يمكن أن تكون العين فى النص الأول واليد فى النص الثانى بمعنى الجارحة : لأن الأدلة العقلية والشرعية تجعل هذا الأمر مستحيلا ، فالعقل يمنع أن تكون له سبحانه وتعالى عين أو يد مثل الحوادث ، لأنه لو كان كذلك لكان حادثا مثلها ، والأدلة النقلية أيضاً تمنع من ذلك فقول الله تعالى ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير[3] يمنع أن يكون المراد من العين واليد الجارحة .

وإنما تثبت له العين واليد سبحانه وتعالى على معنى يليق بذاته تعالى ، فنؤمن بأن الله سبحانه وتعالى قال ذلك فى القرآن الكريم ، ولكن النص الكريم مؤول ومصروف عن ظاهره ومحمول على معنى يليق بذاته تعال ، ولا نبحث عن تحديد هذا المعنى اللائق بذات الله تعالى ، فهو مفوض إلى علمه سبحانه وتعالى . وإلى هذا الرأى ذهب السلف .

سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى ورضى الله عنه عن معنى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[4] فقال رحمه الله تعالى : (الاستواء معلوم

(١) فى الآية ٣٩ من سورة طه
(٢) فى الآية ١٠ من سورة الفتح
(٣) فى الآية ١١ من سورة الشورى
(٤) الآية ٥ من سورة طه

والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ ثم قال : « أخرجوا هذا الرجل فإنه رجل سوء ».

وذهب الخلف إلى أن مثل هذه النصوص تؤول تأويلا تفصيليا فتحمل على معنى يليق بذاته تعالى ويحدد هذا المعنى فى كل نص من نصوص متشابه الصفات فى الكتاب والسنة ؛ فالعين تفسر بالحفظ واليد بمعنى القوة والقدرة

فقوله تعالى : (ولتصنع على عينى) أى بحفظى ، وقوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) أى قوته وقدرته فوق قوتهم وقدرتهم ، والاستواء فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) بمعنى الاستيلاء على وجه القهر والغلبة . إلخ

(ب) إذا كان اللفظ له معنيان حقيقيان أحدهما حقيقة شرعية ، والآخر حقيقة لغوية ، يجب على المفسر أن يحمله على الحقيقة الشرعية لأن الشرع ألزم إلا إذا كان هناك قرينة تمنع من الحمل على الشرعية ، فيجب الحمل على اللغوية .

فمثلا : لفظ الصلاة له معنى فى اللغة وهو الدعاء . وله معنى فى الشرع وهو الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة .

وكلا المعنيين حقيقة ، إلا أن الأول حقيقة لغوية والثانى حقيقة شرعية فلفظ الصلاة فى قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون)[1] يجب أن يحمله المفسر على المعنى الشرعى الحقيقى

أما قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل

الآية ٥٦ من سورة النور

عليهم إن صلاتك سكن لهم)[1] فيمتنع حمل الصلاة فيه على الحقيقة الشرعية ويجب حملها على الحقيقة اللغوية وهو كونها بمعنى الدعاء ، والسر فى ذلك أنه لا يصلى على أحد حال حياته صلاة شرعية وإنما يصلى عليه بمعنى آخر هو أن يدعى له ، فهذا الدعاء يعتبر صلاة بالمعنى اللغوى الحقيقى أخرج مسلم بسنده عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : (اللهم صل عليهم) فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال ، (اللهم صل على آل أبى أوفى)[2]

(ج) إذا كان اللفظ له معنيان حقيقيان أحدهما حقيقة عرفية والآخر لغوية يجب على المفسر أن يحمله على حقيقته العرفية لا اللغوية ؛ فمثلا لفظ الغائط معناه اللغوى الأصلى : المكان المتسع من الأرض مع انخفاض ثم توسع فى هذا اللفظ فصار حقيقة عرفية للخارج من الإنسان عندما يقضى حاجته بالمجاورة لأنهم غالبا كانوا يقضون حاجتهم فى المكان المتسع من الأرض مع انخفاض ومن هذا المنطلق فإن لفظ الغائط فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ..)[3] لفظ الغائط فى هذا النص القرآنى الكريم محمول على حقيقته العرفية لا اللغوية ، لأن العرف طارىء على اللغة .

(د) إذ كان اللفظ له معنيان حقيقيان أحدهما حقيقة عرفية والآخر شرعية يجب على المفسر أن يحمله على الشرعية لأن الشرع ألزم :

---

(١) فى الآية ١٠٣ من سورة التوبة

(٢) انظر صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب الدعاء لمن أتى بصدقة .

(٣) فى الآية ٤٣ من سورة النساء

(هـ) إذا كان اللفظ مشتركا بين معنيين : أى مستعملا فى اللغة فى معنيين على وجه الحقيقة ، ولا تختلف الحقيقة فيهما كأن يكون كلا المعنيين حقيقة لغوية أو كلاهما حقيقة شرعية أو كلاهما حقيقة عرفية ، ولكن لا يمكن إرادة كلا المعنيين من اللفظ فى القرآن الكريم لتنافى اجتماعهما على محل واحد ، فإن المفسر — كما قدمنا = يجتهد فى تعيين المعنى المراد من اللفظ فالذى يؤدى إليه اجتهاده يكون هو مراد الله تعالى فى حقه من اللفظ القرآنى .

فمثلا لفظ القرء فى اللغة مشترك بين معنيين : طهر المرأة وحيضها ، ولا يجتمعان فى وقت واحد . ولذلك اختلف فى المراد منه فى قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) الآية[٢] فمن حمله على الحيض فسر عليه قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) الآية[٢] بمعنى : مستقبلات عدتهن ، فيكون الطلاق عنده فى طهر غير مجامع فيه فتستقبل المرأة عدتها من الحيضة التى تلى ذلك الطهر ، ومن حمله على الطهر فمعنى النص عنده لأول عدتهن أى فطلقوهن فى وقت يشرعن فيه فى العدة .

وهذا الاختلاف من أجل أن يكون الطلاق سنيا (أى طلقة واحدة فى طهر لم يمسسها فيه)

(و) وإذا كان اللفظ مشتركا بين معنيين مختلفين ، ولكن لا يتنافى اجتماعهما بحيث يمكن إرادتهما جميعا من اللفظ الواحد ، يحمل المفسر اللفظ عليهما جميعا .

---

(١) انظر الآية ٢٢٨ من سورة البقرة
(٢) انظر الآية ١ من سورة الطلاق
(٣) الآية ١٧ من سورة التكوير

فمثلا : لفظ (عسعس) فى قوله تعالى : (والليل إذا عسعس)[١] يحمل على المعنيين : إقبال الليل بظلامه ، وإدباره (ذهابه) « وهذا أبلغ فى الإعجاز »[٢] .

٩ — يجب على المفسر أن يكون مبتعداً عن كل الأمور التى تجعل تفسيره مردوداً ، وتجعله فى عداد القائلين بالرأى المذموم ، ومن هذه الأمور ما يأتى :

أولا : يجب على المفسر أن يتجنب ويبتعد عن الخوض فيما استأثر الله بعلمه ، وذلك كالمتشابه (متشابه الصفات) الذى لا يعلم تأويله إلا الله تعالى ، ويرجح فى هذا رأى السلف لأنه أسلم ، وقد قدمناه فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسراره وحجبه عن عباده .

ثانيا : يجب على المفسر أن يتجنب السير مع الهوى والاستحسان فلا يفسر بهواه ، ولا يرجح باستحسانه .

ثالثا . يجب على المفسر أن يتجنب التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا ، فيحتال فى التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته ، ويرده إلى مذهبه بأى طريق أمكن ، وإن كان غاية فى البعد والغرابة .

« وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله تعالى بهذه العناية التى نوهنا عنها فيما تقدم ، واشتغلوا به على هذا النحو الذى أفادت منه العلوم

---

(١) الآية ١٧ من سورة التكوير .
(٢) البرهان للزركشى والاتقان للسيوطى .

كما سبق ، فإن هناك مع الاسف الشديد بعض جوانب القصور والخطأ فى التفسير كان من الخير أن يظل القرآن الكريم بعيداً عنها .

ومن هذه الجوانب : استخدام آيات القرآن الكريم لتأييد الفرق والخلافات المذهبية ، فإنه لما حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبى ، والتشاحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب ، وحاملوا رايات الفرق المختلفة يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، وامتدت أيديهم إلى القرآن الكريم ، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه وجهات تتفق ومايريدون ، وبذلك تعددت وجهات النظر فى القرآن الكريم ، واختلفت مسالك الناس فى فهمه وتفسيره ، وظهرت فى أثناء ذلك ظاهرة خطيرة ، هى تفسير القرآن الكريم بالروايات الغريبة والإسرائيليات الموضوعة التى تلقفها الرواة من أهل الكتاب ، وجعلوها بيانا لمجمل القرآن الكريم وتفصيلا لآياته ، ومنهم من عنى بتنزيل القرآن الكريم على مذهبه أو عقيدته الخاصة ، وبذلك وجدت تحكمات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم ، ويستبيحون فى سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن الكريم ، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ومن يخرجها عن بيانها الواضح وعرضها المسوقة له لكيلا تصلح لمذهب فلان وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعا ، ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما .

كانت هذه ثورة غير منظمة عقدت حول القرآن الكريم غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية ، وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظ ودون كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعاً من القداسة التى يخضع لها الناس فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى والانحلال السياسى كقضايا مسلمة وعقائد موروثة

لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها »[١] .

« قيد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامى فيما يختص بفهم القرآن الكريم . والانتفاع بهداية القرآن الكريم ، فجمد الناس على تقليد هذه الكتب ، واتخذوها حكما بينهم ، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ، ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئا منها ، وقالوا : هذا شىء درج عليه السابقون المتقدمون ودونوه فى كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله تعالى ، وتلقته الأمة بالقبول ، وما كان لنا — ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظرا فى فهم أساليب القرآن ، وتخريج الأحكام — أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة ، ولا أن نخالفه فى قليل ولا كثير ، وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين ، وقعدوا عن النظر فى القرآن الكريم ، وامتلأت أذهانهم بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة ، وما يحل وما يحرم ، وصار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحله فلان فى كتاب كذا ، وأن الحرام ما حرمه فى كتاب كذا ، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول إن هذا الشىء ثابت فى القرآن لأن فلانا وفلانا حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم »[٢] .

رابعاً : يجب على المفسر أن يتجنب التفسير مع القطع بأن مراد الله

---

(١) تفسير القرآن الكريم — الأجزاء العشرة الأولى — لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت — شيخ الأزهر الأسبق ص ٩ ، ١٠ ببعض تصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٠

تعالى كذا وكذا من غير دليل ، فهذا منهى عنه شرعا ، لأن الله تعالى ذكر من جملة المحرمات : (... وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[1].

وهذا معطوف على المحرمات المتقدمة فى أول الآية الكريمة : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ...) إلخ الآية الكريمة .

وحيث إنى قد بينت أن المفسر لا يجوز له أن يتهجم على تفسير ما استأثر الله تعالى بعلمه وحجبه عن خلقه ، وبينت أنه لا يجوز له أن يقطع بأن مراد الله تعالى كذا وكذا من غير دليل لزم على أن أبين أنواع العلوم التى اشتمل عليها القرآن الكريم وما يمكن معرفته منها وما لا يمكن فأقول وبالله تعالى التوفيق :

(أنواع علوم القرآن الكريم) :

تتنوع علوم القرآن الكريم إلى أنواع ثلاثة وهى ما يأتى :

النوع الأول : علم لم يطلع الله تعالى عليه أحدا من خلقه ، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه ، من معرفة كنه ذاته وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، وهذا النوع لا يجوز لأحد الخوض فيه ولا التهجم عليه بوجه من الوجوه إجماعا .

النوع الثانى : ما أطلع الله سبحانه وتعالى عليه نبيه ﷺ من أسرار الكتاب واختصه به ، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ ، أو لمن أذن له ، ومنه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ومن العلماء من يجعلها من النوع الأول .

(١) انظر الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

والراجح فى نظرى أنها دالة على التحدى والإعجاز[1] .

النوع الثالث : علوم علمها الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ مما أودع فى كتابه من المعانى الجلية والخفية ، وأمره بتعليمها ، وهذا النوع قسمان :

قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع ، وذلك كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، والقراءات واللغات (اللهجات فى القرآن) وقصص الأمم الماضية ، وأخبار ما هو كائن من الحوادث ، وأمور الحشر والمعاد .

وقسم يؤخذ بطريق النظر ، والاستدلال ، والاستنباط ، والاستخراج من العبارات والألفاظ ، وهو ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : اختلفوا فى جوازه . وهو تأويل الآيات المتشابهات فى الصفات .

وثانيهما : اتفقوا على جوازه ، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والمواعظ والحكم والإشارات ، وما شاكل ذلك من كل ما لا يمتنع استنباطه من القرآن الكريم واستخراجه منه لمن كان أهلا لذلك ، اهـ[2] .

خامسا : يجب على المفسر أن يتجنب فى تفسيره ذكر ما لا يصح من أسباب النزول ، وأحاديث الفضائل الموضوعة أو الضعيفة والقصص

(١) كتبت فى الحروف المقطعة بالتفصيل فى كتابى : (تفسير سورة الحجر) .

(٢) انظر ما نقل عن ابن النقيب فى الإتقان للسيوطى .

الموضوع والتى ينكرها شرعنا الإسلامى ، والأخبار الإسرائيلية فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن الكريم ، ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار، ويعتبر من الدخيل فى التفسير (١) .

سادسا : يجب على المفسر أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو فى التفسير كالخوض فى ذكر مسائل النحو وعلله بالتفصيل ، وتفصيل دلائل مسائل أصول الفقه ، ودلائل مسائل أصول الدين ، ودلائل مسائل الفقه فإن كل ذلك مقرر فى تأليف هذه العلوم ، وإنما يؤخذ ذلك مسلما فى علم التفسير دون استدلال عليه .

وقد يقال : إن هذا الكلام يتعارض مع ما ذكرناه قبل ذلك من من ضرورة تعلم المفسر كل العلوم .

والجواب : لا يوجد تعارض ، لأن تكليف المفسر يتعلم العلوم لاحتياج التفسير إليها ، ولابد أن تكون تابعة للتفسير فهى وسيلة فقط للتفسير وبيان المعنى ، ولا يؤخذ من هذه العلوم فى التفسير إلا بقدر الحاجة والضرورة .

أما التوسع والتفصيل فيها فى التفسير ، فإنه لا يعد من التفسير، وإنما يعتبر من الدخيل فى التفسير (٢) .

ومن الدخيل أيضا تفسير القرآن الكريم على مقتضيات النظريات العلمية

(١) وقد كتبت فى الدخيل فى التفسير بالتفصيل فى كتابى : «منحة الجليل فى التنبيه على ما فى التفسير من الدحيل » وراجع أيضا فى هذا : الدخيل فى التفسير للأستاذ الدكتور عبد الوهاب فايد والدخيل فى التفسير للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن

(٢) منحة الجليل فى التنبيه على ما فى التفسير من الدخيل . تأليف أ. د سيد مرسى إبراهيم البيومى ص ٢٤

« وذلك أن طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية ، وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون آيات القرآن الكريم على مقتضاها .

نظروا فى القرآن الكريم فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء »(١) .

فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحا جديدا ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وفصلوا القول فى هذه القواعد والنظريات ومزجوها بتفسير القرآن الكريم ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن الكريم ، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا فى القرآن الكريم على هذا الأساس ، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن الكريم وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن الكريم ، ولا تتفق مع الغرض الذى من أجله أنزله الله سبحانه وتعالى ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب أو حديث عن الرعد أو البرق تهللوا واستبشروا ، وقالوا : هذا هو القرآن الكريم يتحدث إلى العلماء الكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب ، وكيف ينشأ ، وكيف تسوقه الرياح ، وإذا رأوا القرآن الكريم يذكر الجبال ، أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شىء . قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة . وإذا

(١) فى الآية ٣٨ من سورة الأنعام

رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم، قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن الكريم كتاب علمي دقيق.

«ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن الكريم قوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم»[1] بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير، يفسرون النص القرآني بهذا ويغفلون عن قوله تعالى: «ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون»[2].

«روي أن رجلا جاء إلى سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه وقال له: «تركت في المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه، يفسر قوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام فقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «من علم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، إنما كان هذا لأن قريشا استعصوا على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسني يوسف عليه السلام، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد».

(١) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الدخان

(٢) الآيات ١٢ — ١٤ من سورة الدخان

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء شأنا غيبيا من شئون الله الخاصة، لم ينزل بتفصيله وحي، ولم يطلع الله سبحانه وتعالى على حقيقته أحدا من خلقه، ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان يفسر (الكتاب المبين) و(الإمام المبين) الذي تحصى فيه الحسنات والسيئات، ويعرض على أصحابها يوم القيامة، بالتسجيل الهوائي للأصوات، ويقول: أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية، واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات، ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية، والله القادر خالق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك، هي محاسبة الناس يوم القيامة وعرض أعمالهم عليهم، كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم وما قدموا من عمل».

«يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى: (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى)[1] وقوله تعالى: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا)[2] ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم».

«إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير، ولكن على حسب ما كانت توحي به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية».

(١) الآية ٥٢ من سورة طه.

(٢) الآية ١٣ من سورة الإسراء.

ولسنا نستبعد — إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية داروين مثلا — أن يأتى إلينا واحد من هؤلاء فيقول : «إن نظرية داروين قد قال بها القرآن الكريم منذ مئات السنين» .

جوانب الخطأ فى هذا الإتجاه

«هذه النظرة للقرآن الكريم خاطئة من غير شك ، لأن الله تعالى لم ينزل القرآن الكريم ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم وأنواع المعارف» .

«وهى خاطئة من غير شك ، لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن الكريم تأويلا متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ، ولا يسيغه الذوق السليم» .

«وهى خاطئة لأنها تعرض القرآن الكريم للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات» .

«فلو طبقنا القرآن الكريم على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها ، وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجا فى الدفاع عنه» . «فلندع للقرآن الكريم عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم» ، ومن أجل هذا كلف المفسر بدراسة العلوم الحديثة ، وليست دراسته لها من أجل أن يفصل القول فى قواعدها ونظرياتها فى تفسير القرآن الكريم .

«وحسبنا أن القرآن الكريم لم يصادم — ولن يصادم — حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول» .

«قيل : يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون)[1] .

«وإنك لتجد هذا فى سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[2] .

«أليس فى هذا دلالة واضحة على أن القرآن الكريم ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون ، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع وإعجاز ؟»[3] .

سابعاً : يجب على المفسر أن يتجنب إطلاق لفظ الحكاية فى التفسير

نقل الإمام السيوطى — رحمه الله تعالى عن الإمام أبى نصر القشيرى أنه قال : «قال معظم أئمتنا : لا يقال : (كلام الله محكى) ولا يقال : (حكى الله) لأن الحكاية الإتيان بمثل الشىء ، وليس لكلامه — سبحانه وتعالى — مثل : وتساهل قوم فأطلقوا لفظ الحكاية بمعنى الإخبار»[4] ا . هـ

---

(١) الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٣) تفسير الأجزاء العشرة الأولى للقرآن الكريم ، لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق — رحمه الله تعالى ص ١١ — ١٤ ببعض تصرف .

(٤) الإتقان للسيوطى .

ثامنـاً : يجب على المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار فى القرآن الكريم ما أمكن نقل الإمام السيوطى عن بعض العلماء أنه قال : «مما يدفع توهم التكرار ، فى عطف المترادفين ، نحو : (لا تبقى ولا تذر) [١] (صلوات من ربهم ورحمة) [٢] وأشباه ذلك ، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما ، فان التركيب يحدث معنى زائداً ، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ » اهـ [٣] .

أقول : إذا كان مجموع الكلمتين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما فلا يصح أن يطلق عليهما بأنهما مترادفان ، وإن ساغ ذلك فى اللغة العربية ، فلا يصح هذا الإطلاق فى القرآن الكريم لما تقدم .

تاسعا : يجب على المفسر أن يتجنب إطلاق لفظ الزائد فى كتاب الله تعالى فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له ، وكتاب الله منزه عن ذلك .

ولذا لجأ البعض إلى التعبير بالتأكيد ، والصلة ، والمقحم بدل لفظ الزائد والمسألة خلافية ، فقد نقل الإمام السيوطى رحمه الله تعالى عن ابن الخشاب رحمه الله تعالى أنه قال : «اختلف فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن الكريم ، فالأكثرون على جوازه ، نظرا إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم ولأن الزيادة بإزاء الحذف ، هذا للاختصار والتخفيف هذا للتوكيد والتوطئة ومنهم من أبى ذلك وقال : هذه الألفاظ المحمولة

(١) الآية ٢٨ من سورة المدثر .
(٢) فى الآية ١٥٧ من سورة البقرة .
(٣) الإتقان للسيوطى .

على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها فلا أقضى عليها بالزيادة» اهـ [١]

١٠ — يشترط فى المفسر أن يكون دائم الاطلاع والقراءة الواسعة بفهم وعمق ، ويجب أن يلم المفسر بكل ما كتب عن الموضوع الذى يحاضر فيه أو يكتب عنه ، لأن نتائج الموضوع تتحدد بمدى الاطلاع والقراءة فيه [٢] .

١١ — ويشترط فيه أن يتصف بالدقة التامة فى فهم آراء الغير ، وفى نقل عباراته ، فكثيرا ما يقع الإنسان فى أخطاء جسيمة بسبب سوء الفهم أو الخطأ فى النقل [٣] .

١٢ — ويشترط فى المفسر ألا يأخذ آراء الغير على أنها حقيقة مسلم بها ، لأن كثيرا من الآراء بنى على أساس غير سليم ، فليدرس المفسر آراء غيره ودعائمها فيقر منها ما يتضح له صحته ، ويرد ما لم يكن قوى الأسس والدعائم ، بالأدلة والبراهين العقلية والنقلية الصحيحة .

فالبحث العلمى موهبة تمنح لبعض الناس ولا تمنح للآخرين ، وليس الاطلاع ولا جمع المادة وترتيبها بالعناصر الكافية لكتابة بحث ممتاز ، بل لابد من توافر المقدرة على البحث عند الباحث ، فجمع المادة وترتيبها شىء ، وتفسيرها وإبراز أهميتها شىء آخر ، بل هذا هو الجانب الصعب

(١) المصدر السابق
(٢) هذا الشرط وما بعده ليس خاصا بالمفسر ، وإنما يعم كل باحث ومتخصص تخصصا علميا أكاديميا وإنما ذكرت المفسر فقط ، لأن البحث فيه ، وهذه الشروط تشمله .
(٣) كيف تكتب بحثا أو رسالة للأستاذ الدكتور أحمد شلبى صـ ١٥ بعض تصرف .

والمهم فى إعداد البحوث العلمية ، ويجب أن يعرف الباحث أن هناك شيئا لايمكن التجاوز عنه أو تجاهله ، هو أن تكون للباحث مقدرة يستطيع أن يستقل بها فى فهم الحقائق وتفسيرها، فما لاشك فيه أن الحقائق شىء لايختلف ، ولكن فهمها وتفسيرها شىء قابل للاختلاف ، فإذا لم يكن الباحث ممنوحا هذه المقدرة فهو دون المستوى اللازم للمنهاج العلمى المطلوب.

فمثلا : المراجع الأساسية للدين الإسلامى وقوانينه واحدة ، ولكن شخصية المجتهدين من العلماء أدت إلى اختلافهم فى فهم النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة ، فظهرت المذاهب المختلفة نتيجة لاختلاف الفهم فيجب على الباحث أن يفحص بعمق كل مايقرأ ، وألا يسلم بما قرره غيره من نتائج ، بل يدرس هو الأحداث والأسباب مع مقارنة النصوص بعضها ببعض لتبرز شخصية الباحث فى كل مراحل البحث ، بحيث تكون إيجابية مؤثرة ، فالبحث العلمى فرصة ليثبت الباحث فيه سعة اطلاعه ، وعمق تفكيره ، وقوته فى النقد ، والتبصر فيما يصادفه من أمور[1].

١٣ — يشترط فى المفسر أن يكون هدفه من إقرار الصحيح وتزييف غيره هو الوصول إلى الحقيقة المؤيدة بالأدلة والحجج العقلية والشرعية الصحيحة .

ولا يصح أن يكون هدفه من ذلك هو الجدال فى حد ذاته ، فليحذر الباحث أن يبالغ فى ذلك فيجادل بالحق وبالباطل لشهوة الجدال وإفحام الغير ليس إلا ، فهذا مايجب أن يبتعد عنه المفسر كل البعد[2] .

١٤ — يشترط فى البحث الذى يكتبه المفسر فى التفسير أن يضيف

(١) المصدر السابق ص ١٥ ، ١٨ ، ٢٣ بتصرف .
(٢) كيف تكتب بحثا أو رسالة ص ٢٣ بتصرف .

جديدا إلى ماهو معروف ، أو يرتب المفسر المادة العلمية ترتيبا جديدا مفيدا ، أو يهتدى إلى أسباب جديدة لحقائق قديمة أو يكون موضوعا منظما من مادة متناثرة ، أو نحو ذلك[1].

١٥ — وليست مهمة الباحث أن يكشف جديدا فقط ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يجب أن يصوغ ماكشفه بأسلوب بلاغى رصين . وفى قالب جميل فيه وضوح وإغراء ، وقوة وتأثير فى القارىء .

فالباحث إذا كون رأيا عن طريق اطلاعه فعليه أن يجمع له من المادة العلمية ما يكفى لإظهار هذا الرأى ، وعليه أن يكون متفوقا فى عرض المادة العلمية بأسلوب رصين وبألفاظ جزلة قوية . وبدقة وإتقان ووضوح ، وبدون استطراد مخل أو إبهام .

وعلى الباحث أن يورد فى بحثه من الأدلة التى تجعل القارى يشاركه فيما يذهب إليه فالبحث العلمى الناجح يتحقق بإيراد الأدلة وأن يكون البحث مشتملا على مادة علمية مفيدة مرتبة ومكتوبة بأسلوب جميل أخاذ وأن يكون متصفا بالوضوح والتسلسل حتى يظل القارىء منجذبا إليه متعلقا به طيلة قراءته لهـــذا البحث فهذا الانجذاب يكون ضعيفا إذا صادف القارىء استطرادا مخلا أو خفاء وإبهاما مما قد يشغل ذهنه من تتبع الفكرة الأساسية التى يعالجها الباحث[2].

١٦ — يشترط فى المفسر أن يكون قادرا على الاستقلال فى البحث العلمى .

(١) المرجع السابق ص ١٦ بتصرف .
(٢) كيف تكتب بحثا أو رسالة ص ١٦ ، ١٧ بتصرف .

أى : يستطيع أن يخرج أعمالا علمية أكاديمية صحيحة من وجهة النظر الإسلامية، دون أن يحتاج إلى من يوجهه ويشرف عليه .

١٧ — يشترط فى المفسر أن يحقق الهدف الأسمى، وهو أن يكون باحثا عن العلم من أجل العلم ، فأهم العوامل التى يتوقف عليها نجاح بحثه العلمى أن يكون هدفه البحث عن الحقيقة ، فإذا ظفر بها أعلنها ، اتفقت مع ميوله أو لم تتفق ، ولا يصح أن يكون هدفه شيئا آخر غير هذا لأن ذلك من العوامل التى تؤدى إلى ضعف هذا البحث العلمى .

«فالبحث العلمى تقرير واف يقدمه باحث عن عمل تعهده وأتمه ، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة منذ أن كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة ، مرتبة مؤيدة بالحجج والأسانيد»[1] .

(من صور البذل والعطاء الدعوة العملية للمفسر)

والمقصود بذلك :

أن يكون المفسر دائم القدوة الحسنة فى عقيدته وفى سلوكه العملى ، وفى أخلاقه ، وأن يكون رائده فى ذلك :

قوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)[2] ، بل إن هذا هو أهم صور البذل والعطاء للمفسر ، لأن الدعوة القولية لا يترتب عليها نتائجها وثمارها إلا إذا كان صاحبها مطبقا لما يدعو إليه على نفسه أولا ، فتأثير العمل أقوى بكثير جدا من تأثير القول : قال الإمام أبو حامد الغزالى — رحمه

(١) المرجع السابق ص ١٣

(٢) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

الله تعالى : (عمل رجل فى ألف رجل خير من قول ألف رجل فى رجل) لأن قولهم ليس مقرونا بالعمل وصدق الله العظيم حيث يقول : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)[1] وقال تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)[2] .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أهم المقاييس للعالم وهى الخشية لله سبحانه وتعالى، وقصر الله سبحانه وتعالى الخشية على العلماء فقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[3] وخشية العلماء لله سبحانه وتعالى خوفهم منه سبحانه وتعالى استحضارا لعظمته وجلاله ، وهذا يستلزم أنهم مطبقون لكل التعاليم الإلهية ، فى العقائد ، وفى التشريعات العملية ، وفى الأخلاق ويفهم من النص القرآنى الكريم أن من لم يخش الله سبحانه وتعالى ، فلم يمتثل أوامره ، ولم يجتنب نواهيه ، فليس بعالم ، ولو كان محصلا لكل علوم الدين والدنيا ، فهذا مقتضى الحصر بـ (إنما) وقد وصف الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بالجهل مع أنهم عارفون بتعاليم الله سبحانه وتعالى لعدم عملهم بما يقتضيه علمهم ، وذلك فى أروع تشبيه حيث يقول تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)[4] .

وقد حفلت السنة الشريفة باحث على العمل ، وبالذم والوعيد الشديد لمن لم يعمل بعلمه ، ويطول بنا المقام لو ذكرنا هذه الأحاديث فأكتفى بما تقدم ومن أراد المزيد فليرجع إلى مراجع الحديث ، والله الموفق .

(١) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .

(٢) الآية ٤٤ من سورة البقرة .

(٣) فى الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٤) فى الآية ٥ من سورة الجمعة .

وبعد : فقد فصلت القول — بعون الله تعالى — فى (مرحلة البذل والعطاء) التى لا يكون الإنسان مفسرا — شكلا وموضوعا إلا إذا اجتازها بنجاح وتفوق على سبيل الامتياز ، على الوجه الذى ذكرناه ، بالإضافة إلى إجتيازه المرحلة السابقة : (مرحلة الإعداد والتوجيه) بنجاح وتفوق أيضا على وجه الامتياز .

أما إذا اجتاز المرحلة الأولى فقط : (مرحلة الإعداد والتوجيه) فإنه لا يكون مفسرا شكلا وموضوعا ، وانما يكون مفسرا من الناحية الشكلية وإن شئت فقل : يكون مفسرا بالقوة ، بمعنى : أن لديه إستعدادا لأن يكون مفسرا بالفعل ، وذلك إذا إجتاز المرحلة الثانية : (مرحلة البذل والعطاء) بنجاح وتقدم أيضا كالأولى على سبيل الامتياز .

ولا يشترط فى المفسر أن يبرز ويتفوق فى كل صور ومجالات الإنتاج العلمى ، بل يكفى فى إعتباره مفسرا أن يبرز ويتفوق فى بعضها .

ومن العرض المتقدم : تستطيع أن تستخلص منه : أن المرحلة الأولى : (مرحلة الإعداد والتوجيه) بمثابة المقدمات أو الأسباب أو الوسائل أو المبادىء ، وأن المرحلة الثانية : (مرحلة البذل والعطاء) بمثابة النتائج أو المسببات أو الغايات أو المقاصد .

وأن المرحلة الثانية مترتبة على المرحلة الأولى ، وتالية لها ولا يتأتى للإنسان أن يجتاز الثانية إلا بعد اجتيازه الأولى .

والآن : أيها القارىء الكريم : إلى (نتائج البحث) .

الخاتمة

تلخيص للبحث ، وأهم النتائج المستخلصة منه

١ — كى يعطى التفسير نتائجه المطلوبة وثماره المرجوة لابد من اعتبار من يقوم به مفسرا فى الميزان العلمى الأكاديمى الإسلامى ، ولا يكون مفسرا إلا إذا حقق أعلى مراتب التفسير ، ولا يحقق هذه المرتبة إلا إذا اجتاز مرحلتين بنجاح وتقدم على وجه الامتياز ، المرحلة الأولى : (مرحلة الإعداد والتوجيه) والمرحلة الثانية : (مرحلة البذل والعطاء) .

٢ — (مرحلة الإعداد والتوجيه) يتم فيها تأهيل المفسر فى مجالين :

(ا) مجال العقيدة ، والسلوك ، والأخلاق .

(ب) ومجال الثقافة والتعليم

وتدريب المفسر فى مجال التعليم والثقافة يكون فى فترتين :

الفترة الزمنية الأولى (فترة الدراسة التمهيديه) .

والفترة الزمنية الثانية : (فترة الدراسة الأكاديمية الإسلامية) .

ويتم تدريب المفسر فيها فى مجال التحصيل النظرى للعلوم ، وفى مجال التطبيق ، ولا بد أن يحيط المفسر علما بكل ثقافة لتوقف التفسير عليها ولاشتمال القرآن على كل شىء .

٣ — (مرحلة البذل والعطاء) عبارة عن المرحلة التى يتحقق فيها الإنتاج العلمى للمفسر فى صوره المختلفة ومناهجه المتنوعة ، فى إطار القدوة الحسنة للمفسر .

٤ — لا يكون الإنسان مفسرا بالفعل شكلا وموضوعا إلا إذا اجتاز المرحلتين بنجاح وتقدم على سبيل الامتياز .

٥ — إذا اجتاز الإنسان المرحلة الأولى فقط : (مرحلة الإعداد والتوجيه) اعتبر مفسرا من الناحية الشكلية فقط ، وبعبارة أخرى: اعتبر مفسرا بالقوة ، بمعنى أن لديه إستعدادا لأن يكون مفسراً بالفعل ، وذلك إذا اجتاز المرحلة الثانية (مرحلة البذل والعطاء) بنجاح وتقدم على سبيل الامتياز مثل اجتيازه المرحلة الأولى .

٦ — (مرحلة الإعداد والتوجيه) بمثابة المقدمات أو الأسباب أوالوسائل أوالمبادىء، و (مرحلة البذل والعطاء) بمثابة النتائج أوالمسببات أو الغايات أو المقاصد .

٧ — أن المرحلة الثانية : (مرحلة البذل والعطاء) مترتبة على المرحلة الأولى : (مرحلة الإعداد التوجيه) وتاليه لها ، ولا يتأتى للإنسان أن يجتاز المرحلة الثانية إلا بعد إجتيازه الأولى :

٨ — لا يشترط فى المفسر أن يبرز ويتفوق ويتقدم فى كل صور ومجالات الإنتاج العلمى ومناهجه ، بل يكفى فى إعتباره مفسرا أن يبرز ويتقدم فى بعضها .

٩ — تبين من البحث : أن فهم القرآن الكريم غاية، وعلم التفسير غاية باعتبار ووسيلة باعتبار آخر ، فباعتبار أنه يوصل إلى فهم القرآن الكريم وتدبره فهو وسيلة ، وباعتبار أن العلوم الأخرى توصل إليه فهو غاية للعلوم .

وأما العلوم الأخرى غير التفسير بمختلف أنواعها : لغوية أو دينية أو عقلية أو حديثة فهى وسيلة فقط ، لأنها توصل إلى علم التفسير كما تقدم .

١٠ — لا يفهم من البحث إلغاء التخصصات أو عدم اعتبارها ، لأن العلوم التى يتوقف عليها علم التفسير يباح للإنسان أن يتخصص فى أى علم منها لكن لا يكون مفسرا فى الميزان العلمى الأكاديمى الإسلامى، ولكن المفسر لا بد أن يكون ملما بكل العلوم ، ويلزم من إطلاق لقب (المفسر) عليه صحة إطلاق الألقاب الأخرى ، فكل مفسر عالم ، وليس كل عالم مفسرا فالنسبة بين العالم والمفسر نسبة العموم والخصوص المطلق، يجتمع العلم والتفسير فى المفسر ، وينفرد الأعم وهو العالم فى العالم بأى علم آخر غير التفسير ، فهو يقال له عالم ، لكن لا يقال له مفسر .

١١ — فهمنا من البحث الفرق بين المتخصص فى التفسير والمتخصص فى أى علم آخر غير التفسير، فالمتخصص فى التفسير يدرس العلوم الأخرى على أنها وسيلة للتفسير ، أما المتخصص فى أى علم آخر غير التفسير ، فإن دراسته لهذا العلم هو الغاية التى يهدف إليها من دراسته ، وليست دراسته لهذا العلم وسيلة لدراسة أى علم آخر .

١٢ — تبين لنا من البحث : أن مهمة المفسر شاقة وصعبة للغاية ، لأن مهمته تتعلق بأشرف وأعظم الكتب على الإطلاق والذى ثبتت له خاصية الإعجاز ، ولأنه لا بد أن يلم بكل علم وثقافة ، لاشتمال القرآن الكريم على كل شىء .

ومن هذا المنطلق كان لتخصص التفسير مزية على غيره من التخصصات الأخرى ولكن هذه المزية لا تقتضى تفضيل المتخصصين فى التفسير على المتخصصين فى العلوم الأخرى ، فالمتخصصون على اختلاف أنواعهم متساوون ، بل كل الناس سواء ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، كما تقرر النصوص الإسلامية فى الكتاب والسنة .

١٣ — إنطلاقا من المعيار العلمى الأكاديمى المتقدم فإنى أقرر أن الاعتبارات الآتية لا تدخل فى المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى للمفسر، وذلك على النحو التالى :

الحصول على الدرجة العلمية

الحصول على الدرجة العلمية فى التفسير لا يدخل فى المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى ، مجرد هذه الدرجة لا تجعل من الإنسان مفسراً ، فلم يكن فى عصر الصحابة والتابعين مثل هذه الدرجات العلمية ، ومع ذلك فنحن عالة على موائدهم فى التفسير وفى كل العلوم .

مجرد تدريس التفسير فى المؤسسات العلمية

مجرد تدريس علم التفسير فى المؤسسات العلمية ، كالمعاهد والكليات والمدارس بدون المقياس المتقدم لا يكفى فى إعتبار من يقوم بهذه المهمة مفسراً ، بل هذه المهمة قد تفيد فى إطلاق لقب (باحث فى التفسير) عليه فقط ، مثل الحصول على الدرجة العلمية فى التفسير .

مجرد تأليف الكتب فى التفسير

إن مجرد تأليف الكتب فى التفسير بدون الميزان العلمى الأكاديمى السابق لا يعد مقياساً علمياً أكاديمياً إسلامياً فى اعتبار هذا المؤلف مفسراً بل يجوز أن يطلق عليه لقب : (باحث) مثلا أو نحو ذلك .

تفسير بعض النصوص القرآنية فى مجالس الوعظ والإرشاد

مجرد القيام بهذه المهمة بدون المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى المتقدم فى المساجد ، وفى مجالس الوعظ والإرشاد ، لا يكفى وحده فى اعتبار من يقوم بهذه المهمة مفسراً .

الأبحاث والمقالات فى التفسير المنشورة فى وسائل الإعلام

مجرد القيام بهذه المهمة وحدها بدون توفر المقياس والميزان المتقدم لا يكفى فى اعتبار أصحاب هذه المقالات والأبحاث من المفسرين .

الشهرة العلمية لبعض الشخصيات الإسلامية

مجرد هذه الشهرة وحدها دون استكمال الميزان العلمى الأكاديمى الإسلامى الذى فصلت القول فيه لا تكفى فى اعتبار هذه الشخصيات من المفسرين ، بل لا بد من المقياس المتقدم .

ومن هذا المنطلق فإن القول بأن فلانا من المفسرين ، وأن فلانا ليس من المفسرين ، دون تحكيم المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى يعتبر قولا خاطئا وغير دقيق من وجهة النظر العلمية الأكاديمية الإسلامية .

مجرد القراءة والاطلاع على مراجع التفسير

القراءة وحدها والاطلاع على كتب تفسير القرآن الكريم وعلومه دون تحكيم المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى المتقدم لا تجعل من يطلع ويقرأ فى هذه الكتب من المفسرين ، بل لا بد من توافر الميزان والمعيار العلمى الأكاديمى الإسلامى المتقدم .

قد يقال : إن العرف يعتبر بعض هذه المظاهر أو كلها مقياسا علميا للمفسر ومن هذا المنطلق فإن من تتوافر فيه هذه المظاهر فإنه يعتبر مفسراً كما يقضى بذلك العرف .

والجواب : مادامت هناك نصوص علمية ومراجع استمدت منها هذه النصوص وما دام هناك أدلة عقلية وشرعية على اعتبار هذا المقياس العلمى الأكاديمى للمفسر ، فكيف نحتكم إلى العرف ؟

وأضرب لذلك مثالا : إذا كان العرف يشجع على التحلل والخلاعة والمجون ، والاستهتار بالقيم الإسلامية فهل معنى ذلك أننا نبيح لأنفسنا هذه الأمور لأن العرف يشجع عليها ويبررها بل ويدعو إليها ؟

والجواب : بدهى أننا لا نبيح لأنفسنا مثل هذه الأمور لأن شرعنا الإسلامى يحرمها ويحذر منها ويرتب العقاب عليها والشرع حجة على العرف المنحرف لا العكس : أى ليس العرف حجة على الشرع الإسلامى .

كذلك ما نحن فيه : لا حجة للعرف فى اعتبار هذه المظاهر أو بعضها فى المعيار العلمى الإسلامى للمفسر ، مادامت هناك نصوص منقولة من المراجع المعتبرة الإسلامية ، ومادامت هناك حجج وبراهين عقلية وشرعية تدلنا على الميزان العلمى الأكاديمى للمفسرين ، وإذا كان العرف قد اعتبر مظاهر أخرى مقياسا للمفسر فلا عبرة به[1] وقد تقرر فى علم أصول الفقه الاسلامى : (أنه لا اجتهاد فى مقابلة النص) فإذا لم يعتبر اجتهاد للمجتهدين إذا صادم نصا شرعيا ، فمن باب أولى أنه لا اعتبار للعرف ما دامت هناك نصوص علمية إسلامية وأدلة عقلية ونقلية تقابل ما اعتبره العرف .

١٤ — وضع أيدينا هذا البحث على تحديد الشخصية العلمية للمفسر الأكاديمى فمن هو المفسر فى المعيار العلمى الأكاديمى الاسلامى ؟

(١) ولكن لا مانع من انضمام هذه المظاهر أو بعضها بالاضافة إلى المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى المتقدم، ولكن — كما قلت — هذه المظاهر أو بعضها لا تكفى وحدها فى اعتبار الانسان مفسراً .

والجواب : المفسر الأكاديمى هو الذى يقوم بتفسير وتوضيح النصوص القرآنية على ضوء المنهاج المختار للتفسير .

والمفسر الأكاديمى يتصف بالخصائص الآتية :

(أ) صحة الاعتقاد والمقصد ولزوم سنة الدين بامتثال الأوامر واجتناب النواهى .

(ب) الالمام والمعرفة بكل العلوم لتوقف التفسير المقبول عليها .

(ح) اليقظة والفطنة والعلم بقانون الترجيح فى الرأى .

(د) الابتعاد عن الجهل والضلال وتجنب الأمور التى تؤدى إلى الخطأ وتجعله فى عداد القائلين بالرأى المذموم .

(هـ) مراعاة القواعد التطبيقية العملية التى يتوقف عليها المنهاج الأمثل للتفسير ، ومن ذلك مراعاة ترتيب مصادر وأصول التفسير ، الأول فالأول : (الكتاب — الأحاديث الصحيحة — أقوال الصحابة — أقوال التابعين — الاجتهاد بشروطه) .

(و) دوام القدوة الحسنة ومن ذلك الاخلاص فى العلم والعمل .

ولا يفهم أحد من هذا البحث أننى أريد أن أقول عن نفسى : (إننى مفسر) كلا فإنى أقر وأعترف بأننى مازلت طالب علم ، وصدق الله العظيم حيث يقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وصدق رسول الله ﷺ حيث قال ما معناه : (ما زال المرء عالما ما طلب العلم ، فإن ظن أنه عالم فهو جاهل) :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتقمم

ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

فهذا البحث عبارة عن إجابة عن تساؤلات وجهت إلى كما ذكرت في خطة البحث .

هذا وبالله تعالى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وسلم تسليما كثيرا .

كتب هذا البحث الفقير إلى عفو ربه :

سيد مرسى إبراهيم البيومى

القاهرة فى صفر ١٤٠٩ هـ — سبتمبر سنة ١٩٨٨ م

تم بحمد الله تعالى .

والله ولى التوفيق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وغفرانه ورضوانه

دحض أباطيل القاديانية

فى النبوة والوحى

الجزء الثانى

بقلم

د/ عبد العزيز سيف النصر

أستاذ بقسم العقيدة والفلسفة